

# مجلة الهلال

يوليو 1997

## فؤاد سراج الدين، أحد رموز ثورة 1919

بقلم د. رعوف عباس

يعد فؤاد سراج الدين من أكثر قادة الأحزاب السياسية الحالية في مصر معاصرة لتطور الحياة السياسية في البلاد منذ دستور 1923 وقيام الحياة النيابية في ظلّه، وإذا كان قد اضطر إلى العيش في الظل منذ قامت ثورة يوليو بالقضاء على الأحزاب السياسية، فإن ذلك لا يعنى أنه قد انصرف تماما عن الاهتمام بما يدور على الساحة السياسية - رغم القيود التي حدثت من حركته - وان اقتصر ذلك على دائرة محدودة من خصائمه، حتى استطاع أن يتزعم محاولة إعادة تأسيس الوفد في إطار التعددية الشكلية التي أقامها السادات. ولكن السادات ظل يعمل من أجل الحيلولة دون إعادة تكوين الوفد، لا خشية من شعبية الحزب العتيق الذي ارتبط إسمه بالحركة الوطنية المصرية وثورة 1919، فقد تآكلت تلك الشعبية تدريجيا بعد عام 1936 - العام الذي انضم فيه فؤاد سراج الدين لعضوية قيادته - وبلغ التآكل ذروته في أعقاب ما أثاره "الكتاب الأسود" الذي أصدره مكرم عبيد، ولم تفلح حوادث 1951 من الغاء للمعاهدة والسماح بالكفاح المسلح في منطقة القناة - على استحياء - في استرداد تلك الشعبية فكان من السهل على ثورة يوليو أن تزيح الأحزاب من الساحة السياسية دون ادنى مقاومة.

ولكن خشية السادات من إعادة تكوين الوفد كانت ترجع إلى درايته التامة بشخصية فؤاد سراج الدين الذي قد لا يقنع بدور محدد في لعبة التعددية السياسية، باعتبار أن ثورة يوليو كانت - في نظرة - جملة اعتراضية في تاريخ مصر المعاصر على نحو ما بدا من خطابه الشهير في نقابة المحامين وبحكم كونه أكثر السياسيين المعاصرين قدرة على المناورة والمراوغة وما لبث "الوفد الجديد" أن اكتسب حق الوجود بحكم القضاء.

### التحالف وترابط المصالح

فمن هو فؤاد سراج الدين؟ وما أبعاد الدور الذي لعبه في قيادة الوفد، وفي الحياة السياسية المصرية؟

ينحدر محمد فؤاد سراج الدين من عائلة من اعرق عائلات كبار الملاك التي تداخلت عن طريق المصاهرة مع عائلة مناظرة لها هي عائلة البدروى عاشور، وهي صيغة تقليدية للتحالف وترابط المصالح

بين عائلات كبار الملاك في مصر شاعت منذ نشوء تلك الطبقة في القرن التاسع عشر، بهدف حماية الثورة وتمييزها والدفاع عن المصالح المشتركة لكبار منتجي القطن المصرى .

ولد محمد فؤاد عام 1906 (حسبما جاء بالوثائق البريطانية) وان كان يحرص دائما على الزعم بأنه غير تاريخ ميلاده فأضاف إليه خمس سنوات حتى يستطيع أن يتقدم للترشيح لمجلس النواب عام 1936 ولكن من الثابت أنه كان عضوا باللجنة التنفيذية لشباب الوفد عام 1925، وبذلك يكون عام 1906 تاريخا منطقيا لمولده اللهم إلا إذا كانت اللجنة التنفيذية لشباب الوفد تقبل صبيبا في الرابعة عشرة من عمره، عندئذ تصبح بداية عمل الرجل بالسياسة قد بدأت بالتزوير في تاريخ الميلاد وهو أمر يصعب تبرير دوافعه، إلا في إطار الحرص على عضوية مجلس النواب لاحتلال المقعد الذى شغله والده سراج الدين شاهين باشا حفاظا على مصالح العائلة، وهو تقليد شاع بين كبار الملاك في مصر على مر تاريخ مصر المعاصر، خاصة أن احتفاظ الوالد بالمقعد لم يرتبط بالضرورة بالوفد فقد بدأ وفديا ثم أصبح من نواب حزب الإتحاد "حزب السراى" وختم عضويته بالمجلس مستقلا.

وبعد تخرجه في كلية الحقوق إشتغل فؤاد سراج الدين بالنيابة لفترة قصيرة ثم استقال للتفرغ لإدارة أعماله الواسعة، وعرفت عنة براعته في تحسين الإنتاج الزراعى بأملكه، كما عرف بقدراته الشخصية على استثمار أمواله في مشروعات مالية متعددة وناجحة، ربطته بأصحاب المصالح المالية في البلاد من مصريين وأجانب.

#### من مقاعد القيادة

بهذا الوزن الثقيل دخل فؤاد سراج الدين الوفد من مقاعد القيادة عام 1936 وكان اختيار أعضاء القيادة من اختصاص مصطفى النحاس باشا - زعيم الوفد- وهو أمر شائع أيضا بين سائر الأحزاب التى شاركت فى الحياة السياسية فى إطار دستور 1923. وقد زكى دخوله القيادة سخاؤه فى التبرع للوفد وذكائه الاجتماعى، والصداقة الحميمة التى ربطت بين السيدة قرينته وزينب هانم الوكيل سليلة أسرة عريقة من كبار الملاك جمعتها صلات مصالح ومصاهرة مع أسرة سراج الدين، والتى تزوجها مصطفى النحاس باشا عام 1934. وبذلك كان دخول فؤاد سراج الدين عضوية القيادة يتيح له الاقتراب كثيرا من الزعيم، ومن ثم جاء الربط بين هذه العلاقة الحميمة والفتور الذى شاب علاقة مصطفى النحاس بسكرتير عام الوفد مكرم عبيد أو قل -إن شئت- مظاهر امتعاض الحرس القديم للوفد، أصحاب سابقة النضال الوطنى من التحول الذى أدخله الزعيم على قيادة الوفد بضم جيل جديد من الأثرياء الكبار كان على رأسهم فؤاد سراج الدين، الذى ازدادت حظوته عند مصطفى النحاس باشا.

يتضح هذا من الدور الذى لعبه لإقناع النحاس باشا بقبول تشكيل الوزارة خلال أزمة 4 فبراير 1942 - وفقا لروايته للأحداث والملابسات- فقد انفرد بالنحاس باشا مع مكرم أثناء رحلة قيادة الوفد بالصعيد

ليقنعه بتلبية طلب الملك الحضور إلى القاهرة للقائه لأمر مهم، بل اقنع مدير المديرية بتأخير تحرك القطار المتجه للقاهرة حتى يقنع الزعيم بالسفر واستعان لإقناعه بتلبية دعوة الملك بتأثير زينب هانم الوكيل على زوجها "الزعيم" وجميعها دلالات على مدى الحظوة التي كانت لسراج الدين عند النحاس باشا وعلى مزاحمة الوفد الجديد لمكرم عبيد -السكرتير العام ومايسترو الحزب- في النفوذ والحظوة ولعل ذلك يبرر مزاعم من يذهبون إلى وجود دور فعال لسراج الدين في توتر العلاقة بين النحاس ومكرم ولعل تلك المزاعم وراء حرص سراج الدين على تزيين حائط صالون بيته بصورة زيتية كبيرة لمكرم باشا إلى جانب صورة أخرى للنحاس باشا، وكأنه يريد أن ينفى هذه التهمة التي رماه بها من تناولوا حادث 4 فبراير 1942 بالدراسة .

### نزاهة الحكم

وعلى كل جاء "الكتاب الأسود" وما سببه من أزمة حول نزاهة الحكم وما أسفر عنه من طرد مكرم عبيد من الوفد (ثم سجنه بعض الوقت)، واستقالة بعض رجال قيادة الحزب من الحرس القديم تضامنا مع مكرم، جاء ذلك كله ليمهد الطريق أمام فؤاد سراج الدين للاستحواذ التام على النفوذ في قيادة الوفد، فقد أصبحت الغلبة في القيادة لمجموعة سراج الدين من كبار الملاك الذين حلوا محل من خرجوا مع مكرم وخاصة أن صبرى باشا أبو علم الذى خلف مكرم في سكرتارية الحزب لم تكن له سطوة مكرم أو تأثيره، وأصبح معلوما للمشتغلين بالعمل السياسى أن أبو علم سرعان ما يخلى الطريق لسراج الدين ليتربع على مقعد سكرتارية الوفد ويلعب دور الريان الذى يوجه سفينة الحزب من خلال تأثيره على مصطفى النحاس .

ولا يعنى ذلك أن مصطفى النحاس باشا كان مجرد دمية في يد سكرتير الوفد فكثير ما كان يفاجئ سكرتير الوفد بقرارات يصير عليها مثلما كان يحدث عند تشكيل الوزارات الوفدية حدث هذا مع مكرم عبيد كما حدث مع فؤاد سراج الدين ولكن مصطفى النحاس كان يحظى بسلطة أبويه. وكانت شخصيته تتسم بالبساطة وحسن النية والثقة فى معاونيه، وهو باب واسع دلف من خلاله نفوذ من كسبوا ثقة الزعيم.

وجاء دخول فؤاد سراج الدين الوزارة بعد أسابيع من تشكيل وزارة 4 فبراير 1942 إذا عين وزير للزراعة فى 31 مارس وهى حقيقة متواضعة فم يكن اختصاص الوزارة على هذه الدرجة من السعة التى نعرفها اليوم وسرعان ما جمع فى يده حقيبتين أخريين هما الداخلية والشئون الاجتماعية (2 يونيو 1943 - 8 أكتوبر 1944) وفى وزارة الوفد الأخيرة عين وزيراً للداخلية 12 يناير 1950، ثم جمع معها المالية فى 11 نوفمبر حتى سقوط الوزارة فى 27 يناير 1952 بعد حريق القاهرة، وبذلك كان يتمتع بقدر كبير من السلطة فى الوزارة الوفدية الأخيرة.

## المهادنة مع القصر

وقد لعب فؤاد سراج الدين دور المهندس لسياسة المهادنة مع القصر وان أجهد نفسه كثيرا ليثبت عكس ذلك، كان طموح الرجل كبيرا فله من الشباب والثراء والشخصية الجذابة والقدرة على المناورة ما اكسبه نفوذا واسعا داخل الحزب وخارجه جعله يبدو الوريث المنتظر لزعامة الحزب، وهياً الرجل نفسه للعب هذا الدور. ولما كان الوصول إلى الزعامة يقتضى الحفاظ على التراث النضالى للوفد الذى اختزل فى العمل على مقاومة عدوان الملك على الدستور (وحقوق الأمة)، فقد حرص سراج الدين على أن يحتفظ الوغد بهذه الواجهة فى أمور شكلية تتصل بتعيين بعض كبار الموظفين وأعضاء مجلس الشيوخ مع التغاضى عن أمور تتصل بالمصالح الحيوية للقصر حتى لا تصل العلاقة بين الوغد والقصر إلى طريق مسدود.

والأمثلة على ذلك كثيرة فى وزارة الوغد الأخيرة مثل تدخل الحكومة فى سوق القطن تلبية لرغبة ملكية وتعديل لائحة البورصة والمنحة المقدمة لمستشفى المواساة وقضية عمولة كريم ثابت التى أدت إلى إقصاء رئيس ديوان المحاسبات وإبطال عضوية بعض الشيوخ المعارضين للملك والوفد، وإعداد مشروعات قوانين الصحافة التى تقدمت بها الحكومة للبرلمان وهى التشريعات التى قصد بها تكميم الصحافة تلبية للرغبة الملكية (السامية) وعمل نواب الوغد من الشباب على إسقاطها، مما أثار سخط الملك على سراج الدين باعتباره مايسترو الهيئة البرلمانية للوفد، فكان على الوزرة أن تقدم ترضيات أخرى فى تحقيقات قضية الأسلحة الفاسدة التى طالت بعض حاشية الملك، فانتهى الأمر بإبعاد النائب العام عن منصبه ومسألة تعيين إلياس أندرواس ممثلاً للحكومة المصرية لدى شركة قناة السويس وغير ذلك من التنازلات.

وقد علل فؤاد سراج الدين هذا التهاون من جانب الوغد فى مواجهة أطماع الملك وفساده، بان الوزارة كانت تريد الاستمرار فى الحكم لتحقيق هدف إلغاء معاهدة 1936 وبدأ الكفاح المسلح فى قناة السويس، والحق أن إلغاء المعاهدة كان مطلباً شعبياً بعد أن أثبتت الحرب العالمية الثانية أن "معاهدة الشرف والاستقلال" التى ابرهما النحاس مع بريطانيا كانت وبالاً على مصر بل كان مجيء الوغد إلى الحكم فى يناير 1950 برضاء بريطانيا التى كانت تريد التوصل إلى اتفاق جديد يمتص غضب الحركة الوطنية المصرية، وعندما عجزت حكومة الوغد عن التوصل إلى اتفاق، لم يكن هناك مفر من إلغاء المعاهدة، وما كان الملك ليجرؤ على الامتناع عن توقيع مرسوم الإلغاء لأنه إن فعل ذلك، خرج الوغد من الحكم شهيداً للوطنية ووصم الملك بالخيانة، وخاصة أن المظاهرات ملأت الشوارع عام 1951 منددة بفساد الملك، حركتها هذه المرة قوى سياسية بعيدة عن الوغد، ورغم العنف الذى واجهت به الشرطة تلك المظاهرات والذى بلغ حد إطلاق الرصاص على المتظاهرين، فإن الملك غضب على وزير الداخلية سراج الدين واتهمه بفتور الهمة فى مواجهة المظاهرات، أملا فى المزيد من القمع للحركة الشعبية الاحتجاجية.

أما الكفاح المسلح فى القناة فقد استدرجت إليه الوزارة استدرجاً إذ بدأت الحركة دون ترتيب من جانبها ولعبت قوى سياسية أخرى الدور الأساسى فيها، فكان دخول الحكومة فى التنظيم وتوفير فرص العمل للعمال المصريين الذين غادروا القاعدة سبيلاً لإبقاء الكفاح المسلح تحت السيطرة، وهو ما عبر عنه فؤاد سراج الدين لأحد رجال السفارة البريطانية أثناء الأزمة، فأبدى عدم ارتياح الحكومة لتلك "الحوادث" وأنها تسعى لاحتوائها وأنها لا تتهج إلا السبل السلمية لحل القضية المصرية والوصول إلى تسوية مع بريطانيا، ولكن عجز الحكومة عن احتواء الحركة وتفاقم الأحداث التى بلغت ذروتها بالعدوان على مبنى المحافظة فى الإسماعيلية (25 يناير 1952) وصمود رجال الشرطة فى الدفاع عنها بأوامر من وزير الداخلية فؤاد سراج الدين، عجل بحريق القاهرة لإيجاد مبرر لإسقاط الوزارة فبمجرد إعلان الأحكام العرفية أصدر الملك مرسوم إقالة الوزارة فى 27 يناير 1952.

ومن الجدير بالذكر أن الصحافة الممائلة للملك والإنجليز حرصت على توجيه إصبع الاتهام إلى فؤاد سراج الدين باعتباره الوزير المسئول عن الخسائر التى نجمت عن حريق القاهرة، وأشاعت أنه كان يعقد صفقة شراء عمارة عندما كانت القاهرة تحترق، وكان القصد من تلك الدعاية البحث عن كبش فداء للتغطية على إخطر جريمة ارتكبت فى حق مصر، لابد أن المخابرات البريطانية كانت ورائها، رغم عدم وجود دليل مادى على ذلك، فذلك شأن العمليات التى تنفذها أجهزة المخابرات، لا تترك وراءها دليلاً، ومهما قيل عن براءة الملك من الاشتراك فى هذه المؤامرة، فقد كان سلوكه أثناء الحوادث يشى بصلوعه فيها وكان القصد من تحميل فؤاد سراج الدين المسئولية، دق المسمار الأخير فى نعش الوفد، فقد كان الجميع يعلم حقيقة الدور القيادى البارز لسراج الدين فى الوفد والحكومة، ومن ثم كانت إدانته مطلوبة لإدانة الوفد وقطع الطريق عليه للوصول للحكم.

#### إبراء ذمة الوفد

ولكن فؤاد سراج الدين سعى لتضميد جراح الوفد واختار إبراء ذمة الوفد أمام بريطانيا، وفى ربيع 1952، تم لقاء غير رسمى بينه وبين مسئول كبير فى السفارة حرص خلاله على تأكيد أهمية الوفد كعنصر فعال لتحقيق الاستقرار السياسى وان وصوله للحكم يخدم مصالح بريطانيا لأنها لا تستفيد من بقاء المسألة المصرية دون حل وان أحداً على الساحة السياسية لا يصلح كطرف فى التفاوض مع بريطانيا سوى الوفد، وحللت الخارجية البريطانية تلك الرسالة غير الرسمية التى نقلها رجلها بالقاهرة وانتهت منها إلى أن الوفد لم يعد يتمتع بالمصداقية التى كانت له فى الثلاثينيات، وصرف النظر عن ذلك العرض.

وظل البرلمان ذو الأغلبية الوفدية -بتوجيه من سراج الدين- يؤيد الوزارات التى تعاقبت عن الحكم حتى حل المجلس فى 24 مارس 1952، ليثبت للملك حسن نوايا الوفد، لعل وعسى.

وجاء قيام ثورة يوليو ليقطع الطريق على أمل سراج الدين فى بعث الوفد، والعودة للحكم، ووراثة الزعامة. كان النحاس وسراج الدين يقضيان أجازة الصيف معاً فى أوروبا عند قيام الثورة، فعاداً على عجل وسارعا بتقديم التهنئة إلى مجلس قيادة الثورة فواجههما الضباط بفتور شديد. ولعل سراج الدين كان الوحيد فى هذا اللقاء الذى يعلم انه قد ضيع فرصة الاقتراب من أولئك الضباط الشباب، فقد جاء بعضهم للقاءه أثناء وجود الوفد فى الحكم وخلال معركة القناة -وفق ترتيب خاص لعب وجيه أباطة دوراً فيه- ولمح الضباط بإمكانية الإقدام على عمل ما من جانب الجيش، ولكن سراج الدين حرص فقط على معرفة أسمائهم وأهدافهم ومن وراءهم. وقال فى تبرير ذلك الموقف البارد بعد ذلك بسنوات (فى لقاء مع احد الباحثين) انه كان على يقين أن ولاء ضباط الجيش للملك ليس موضع خلاف، وانه كان عليه أن يتشكك فى نوايا أولئك الضباط.

وسرعان ما دارت عجلة الحوادث بالصورة التى أدت إلى إلغاء الأحزاب، واعتقال فؤاد سراج الدين وبضع وزراء الوفد وتقديمه للمحاكمة بتهم الفساد السياسى بهدف إسدال الستار على دورهم فى الحياة السياسية. وتعرض سراج الدين -بالطبع- لكل ما اتخذته الثورة من إجراءات اقتصادية (تحديد الملكية، التأميمات، الحراسة)، ولكن ذلك لم يبعده عن متابعة الحوادث كمراقب، حتى قرر السادات أن يسمح بقيام نظام حزى فى إطار ديمقراطية شكلية، فأعلن سراج الدين عن نيته لتكوين حزب سياسى، وتقدمت مجموعة من الوفديين وغير الوفديين بطلب تأسيس "الوفد الجديد" الذى رفضته لجنة الأحزاب واقره القضاء.

ولكن الضجة التى صاحبت عودة الوفد، سواء من جانب السادات وأجهزة السلطة أو من جانب رجال الوفد أنفسهم، لم تساعد الحزب على استعادة شعبيته المفقودة التى كشفها قرار إلغاء الأحزاب عام 1953 يوم اقتراح البعض على النحاس أن يتزعم عملاً احتجاجياً ضد القرار، فاعتذر لناصحيه بان احد لا يستطيع التصدى للقطار ليوقف حركته، ودهم قطار الثورة الوفد وغيره من الأحزاب التى تداولت مقاعد الحكم فى إطار دستور 1923، لأنها كانت فى حقيقة الأمر قيادات بلا قواعد حقيقية، وكان الوفد يجتر تراث ثورة 1919 ولا يزال دون أن يطرح حلولاً للأزمة السياسية والاجتماعية وكانت الجماهير قد انقضت من حوله قبل الثورة.

وهكذا جاءت عودة الوفد بزعامة سراج الدين بمثابة إقامة منتدى يضم الموترين من ثورة يوليو المترحمين على ماض سحيق، ولا يكاد يحس بوجود الحزب احد إلا من خلال جريدته، التى عادت إلى لعبة مهاندته القصر، مكتفية بالوجود الرمزى على الساحة السياسية والاجتماعية ومن عجب أن يستمر سراج الدين فى توجيه الحزب بنفس الآليات التى عفى عليها الزمن، دون استيعاب حقيقى لدروس التاريخ.